

المقدمة

لعلّ المهمّة الأساسية لهذا الكتاب هي البَحْث في ما يساعد على تحديد دقيق للعلاقة بين السنة والقرآن المجيد، هذه العلاقة التي صيغت بأشكال متبانية في كثير من الأفهام نتيجة ظروف تاريخية مختلفة، أفرزت معارف وتجارب وخبرات متنوعة مترجمة وافدة، أو مبتكرة سائدة تركت آثارها في العلوم والمعارف التي أطللنا بها على "السنة النبوية"، كما ساعد في ذلك اختلاف الرؤى والمفاهيم والمواقف بين المتقدمين والمتأخرين، كذلك كَرَسَتِ المذاهبُ الفقهية والمدارس الأصولية بنوعيتها: "الأصولي الفقهي" و"الكلامي" بعض الآراء والمواقف من بعض أنواع السنن تبعاً لظروف التحمل، والأداء، وضوابط الجرح والتعديل، والاختلافات الحادّة في كل منها، أو تبعاً للضوابط الفقهية، والقواعد الكلامية، والأصولية التي قد تحمّل بعضهم على رد هذا النوع أو ذاك، وقبول هذا الحديث ورَدِّ أو تأويل ما يخالفه، أو الاختلاف في بعض الرواة، أو في مقاييس نقد المتن، أو غير ذلك، ولا يخفى أنّ بعضها معتبر، وله سنده العلمي ووجهته المنطقية، وبعضها مما تختلف الأنظار فيه.

ونحن في هذه الدراسة لا نستهدف أن نضيف إلى أسباب الاختلاف في السنن أسباباً جديدة، أو نقلل من أهمية هذه المدرسة أو تلك من مدارسنا التاريخية المتنوعة، أو نقف موقف الحَكَم بينها، أو نتصر لبعضها على بعضها الآخر، فكل ذلك لا يعد -في نظرنا المتواضع- مما ينبغي إضاعة نفائس الأوقات فيه، بل إننا نهدف إلى أن نحدد العلاقة الدقيقة بين الكتاب والسنة، تحديداً لا يسمح بإيجاد تضاد بينهما (بطريقة منهجية، لا على طريقة التوفيق

التعسفي والتحكمي الذي قام به بعض ممن اشتغلوا بعلوم مشكل الحديث)، أو إيجاد علاقة غير علاقة تكامل عملي بين نظرية وتطبيق؛ إننا نريد تحديد العلاقة وفقاً لتصورنا لتحديد الله -تبارك وتعالى- لها، وإدراك رسول الله -عليه الصلاة والسلام- لحقيقتها.

إنَّ إشكاليَّة التعامل مع السنة النبويَّة -سيرةً وأقوالاً وأفعالاً وتقريرات- لم تكن قائمة في عهد رسول الله ﷺ؛ ذلك لأنَّ القرآن المجيد كان شديد الوضوح في حصر الحاكمية والاتباع في ذاته، ورسول الله ﷺ كان حريصاً على إيقاف الأمة عند تلك الحدود، وعدم التساهل في تجاوزها في أي حال من الأحوال، لكنه أمرهم باتباعه والتأسي به وهو يتبع القرآن، ويربهم كيفية اتباعه وتطبيقه، والعمل به، وتحويله إلى سلوك ونظام حياة يعيشونه في واقعهم، ويوجهون به حركة الحياة والأحياء.

وقد اتخذ -عليه الصلاة والسلام- جميع الضمانات الكفيلة بترسيخ هذه القاعدة، وتدعيم ذلك المبدأ؛ لبناء أمة القرآن بالقرآن، فكان -عليه الصلاة والسلام- القرآن الإنسان إلى جانب القرآن الكتاب؛ ليكون المثل والأسوة والقُدوة الذي بهُدها يهتدي الناس. ومن أبرز تلك الضمانات التي أكد ﷺ عليها أن لا يشاب القرآن بشيء يمكن أن يشغل الناس عنه، فلقد منع رسول الله أصحابه من كتابة ما يسمعون عنه غير القرآن؛ لأسباب ومسوغات كثيرة سنأتي على بيانها، فكان منع الناس من كتابة السنن، والتوكيد عليهم بأن: من كتب شيئاً غير القرآن فليمحه، ولم يكن الرسول حين يأمرهم بذلك متهاوناً في السنن، أو مُقللاً من شأنها وأهميتها، بل كان يريد الهيمنة بالقرآن على عقول المسلمين، وقلوبهم، وأعمالهم، وتصرفاتهم، وبناء أنفسهم، وعقولهم، وشخصياتهم بالقرآن. فإذا تم ذلك فإن القرآن المجيد سيكون المفتاح للسنة والسيرة، وليس العكس، فإن نزول القرآن مُنجمًا بحيث استغرق نزوله اثنتين وعشرين سنة وخمسة أشهر واثنتين وعشرين يوماً، جعل كل الصحيح من سنة وسيرة رسول الله ﷺ مندرجاً

تحت القرآن، ومشاراً إلى الضروري والهام منها في آياته التي بها تستدعى السنة والسيرة، ولذلك فليست هناك حاجة إلى الكتابة والرواية والتداول للسنن والسير مستقلة، بحيث يمكن أن تصبح بعد طول الأمد، وقسوة القلوب، وفُتُورِ العلاقة مع القرآن الكريم، أو جعله نصاً موازياً قد يتوهم بعضهم إمكان الاستغناء عن القرآن به، أو الاكتفاء بها كما حدث فيما بعد؛ بحيث ينعكس الأمر، فيُتوهم أن السنة تشتمل على القرآن فلا داعي للرجوع المباشر له، بل إن رسول الله ﷺ قد أمر توقيفاً في العَرَضَتَيْنِ الْأَخِيرَتَيْنِ بِوَحْيٍ مِنْهُ -تعالى- بمشاركة جبريل بإعادة ترتيب القرآن الكريم، وقطعه عن أسباب النزول، ومناسباته للمحافظة على الإيمان بإطلاق القرآن، وسدّ أية ذريعة قد تُتخذُ وَسِيلةً للقول بِنِسْبَةِ القرآن أو تَارِيخِيَّتِهِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، أو ارتباطه بعصر النزول فقط، وتحويل الإسلام كله -بعد ذلك- إلى رسالة إقليمية أو قومية منحصرة في منطقة جغرافية محددة، أو شعب من الشعوب؛ لأنّ رسالة القرآن رسالة عالميّة عامّة شاملة منذ البداية قائمة على حاكمية الكتاب، وسريعة التخفيف والرحمة، ووضع الإصرِ والأغلالِ، ورفع الحَرَجِ، وختم النبوة.

ولكي تأخذ "السنة النبوية" ذلك الدور العملي التطبيقي بقي رسول الله ﷺ يُرَبِّي فِي أَصْحَابِهِ ذَلِكَ الْحَسَّ، وحين يأتيه عمر رضي الله عنه بصحيفة من التوراة يشتد غضبه ﷺ ويلقي بها جانبا، ويُعْطِي لِأُمَّتِهِ دَرْسًا فِي غَايَةِ الْأَهْمِيَةِ فيقول: "أَكْتَابَ مع كتاب الله وأنا بين أظهركم؟ والله لو كان موسى حياً لما وسعه إلا اتباعي"، ولم يكن ذلك منه ﷺ يَعْضُ بِذَلِكَ مِنْ شَأْنِ التَّوْرَةِ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ -تعالى- قد أنزل التوراة على أخيه موسى كما أنزل عليه القرآن، ويعلم أنها -قبل أن ينالها التحريف، والحذف، والإضافة، والنسيان، والتناسي من يهود- "أنزلها الله وفيها هدى ونور"، ولكن حرصه ﷺ على أن لا يُشَابَّ القرآن بسواه، وأن لا يشغل المسلمون بغيره، وأن لا يصرفهم شيء عنه مهما كان حتى لو كان منسوباً إلى الله -تعالى-، ولذلك فإن أية ماثورات جاءت بعد ذلك تدعو إلى الانفتاح على التراث الإسرائيلي، إنما هي ماثورات في حاجة إلى مراجعات دقيقة نقدية لا

تقتصر على الأسانيد والمتون، بل تشمل سائر الظروف، وأسباب الوُزود، وما يتعلق بعلم اجتماع المعرفة.

ولا شك أن القرآن الكريم يشتمل على الدين -كُلّه- عقيدةً وشريعةً ونُظْمَ حَيَاةٍ، ما فرط الله فيه من شيء، فهو تبيان لكل شيء، والسنة والسيرة تطبيق عملي، واتباع وبيان شامل لكل ما جاء القرآن به، فحين نريد أن نعرف العقيدة والشريعة ونظم الحياة، فإن القرآن المجيد مصدرُ كُلِّ مِنْهُمَا إِنْشَاءً وَإِيجَادًا. وقد بقي الحال ظاهرًا بَيِّنًا واضحًا في هذا الجانب طيلة عهد رسول الله ﷺ واستمر طيلة عهد الشَّيْخَيْنِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وما يزيد عن ست سنوات من خلافة عثمان، كما كان ذلك مسلك الإمام علي عليه السلام، ثم حدث ما يمكن عدّه انفجاراً في الإكثار من الرواية والإخبار، حتى كادت بعض الروايات أن تنال من القرآن المجيد كما في الأحاديث المتعلقة بالنسخ، فكان -هناك- تَغْيِيرٌ فِي الْأَوْلِيَّاتِ، أو في مراتب المصادر التَّكْوِينِيَّةِ التي بَرَزَتْ آثارها السَّلْبِيَّةُ فيما بعد، فلو أن الناس التزموا بالأوامر النبوية، والسلوك النبوي، وسلوك الراشدين في هذا المجال -لما وقع الاضطراب- والله أعلم.

إن رسول الله ﷺ لم يكن يسمح أن يحتل قلوب المؤمنين وعقولهم شيءٌ يُزَاخِمُ الْقُرْآنَ الْمَجِيدَ، أو يأخذ من اهتماماتهم ما القرآن أولى به، فَتَجَارِبُ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ مع أُمَّهِمْ جعلته -عليه الصلاة والسلام- يخشى أن تقع أمته فيما وقعت فيه أمم من قبلهم، كاليهود الذين قدموا "المِشْنَاءَ" على التوراة؛ فلذلك اشتد تحذيره ﷺ من كتابة شيءٍ غير القرآن أو الانشغال بشيءٍ سواه.

فقد انصرف الناس، بعد جمع السنة، عن القرآن إلى السُّنَنِ بِحُجَّةٍ أَنْ السُّنَنَ متضمنة للقرآن الكريم، ثم انصرفوا عن السنن، وانشغلوا بالفقه بِحُجَّةٍ أَنْ الْفِقْهَ مشتملٌ ضِمْنًا على الكتاب والسنة. وسنأتي لذكر شيء من ذلك فيما سيأتي، ولنا كبير الأمل بأن يُجِيبَ هذا الكتابُ عن كثير من الأسئلة المُقْلِقَةِ الْمُعَلِّقَةِ التي كثيراً ما تُثِيرُ جَدَلًا أو اختلافًا بين حَمَلَةِ هُومِ السُّنَةِ النَّبَوِيَّةِ وَالْعُلُومِ النَّقْلِيَّةِ.

وبناءً على ما تقدم فإننا نقرب مما ذهب الإمام الشافعي إليه وجَمَهَرَهُ العلماء من أنه ما من سنة نبوية تثبت إلا ولها أصل قرآني انبثقت عنه وارتبطت به، وأنه "لا تنزل بأهل دين الله نازلةً إلا وفي القرآن أصل لها"، وأن القرآن في العموم بيان للقرآن، بيد أن هذا الاقتراب لا يمنعنا من القول بأن الشافعي -رحمه الله- همّش عن مصادراته تلك في تخرجات عدّة لأحكام جزئية، وفي ركونه لبعض الوسائط المعرفية غير القرآنية، وهو أمرٌ تعلق حينها بأسباب مركبة، منها ما يرتبط بالتنافسية بين مدرسة الرأي ومدرسة الحديث، وهذه الأخيرة انتصر لها الشافعي، كذلك بمزاحمة الموالي للعرب في المجال الثقافي.

وإنّ مما لا يختلف فيه أهل الإسلام أن الله -عز وجل- قد أمرنا جميعاً بالاعتصام بالقرآن الكريم، وبمنهج رسول الله ﷺ، بتأويله وتفعيله في الواقع الذي يعيشه الناس، فتلك تلاوته حقّ التلاوة، كما أن القرآن قد سجّل سنةً من سنن الاجتماع وقانوناً من أهم القوانين التي خضعت الأمة لها كما خضعت لها الأمم السابقة. إن انحراف الأمم عن الكتاب المنزل سببٌ في ضلالها، وانحرافها، وشيوع الفتن فيها، وإغراء العداوة والبغضاء بين أبنائها؛ ولذلك فإن رسول الله ﷺ اشتد حرصه على أن يجعل من هذه الأمة كلها أمة الذين ﴿يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾ (الأعراف: ١٧٠) ويعتصمون به، ولا يزيغون عن سبيله ولا عن منهج النبي ﷺ في اتباعه وتلاوته وتعليمه تزكية الناس به.

إنّ منهج النبي ﷺ يتسم بالدقة، وإبراز حقائق القرآن كما هي، وذلك المنهج النبوي اكتسب استقامته، ودقته البالغة من القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه. وإن تفرّق الأمة واضطرابها، واختلافها، وتحويلها إلى فرق، وطوائف، ومذاهب وأصحاب مقالات، تكاد كل طائفة منها تدعي لنفسها أنها الأمة والملة وتخرج غيرها من تلك الدائرة، هذه الحالة كثيراً ما يكرسها بعضهم بسنن أو بمأثورات أو أخبار أو روايات منقولة يستشهد بها على موقفه، ويُعزّز بها ما ذهب إليه دون التفات للجانب المنهجي أو الموضوعي الذي لا

يسمح بذلك؛ لذلك فإننا نؤمن بأن طريقَ وَحْدَةِ الأُمَّة، وإعادةِ بنائِها، والعُرُوجِ بها إلى مدارجِ الارتباط، لن يتم إلا بإدراكِ حقيقةِ دَوْرِ الكتابِ الكريمِ في حياةِ الأُمَّة، ومعرفةِ دورِ النبي ﷺ في تلاوته حَقَّ التلاوة، وتعليمِ الناسِ إياه، وبناءِ الأُمَّةِ به، وصياغةِ الواقعِ بنورِ آياته، وإلا فإن حالةِ الأُمَّةِ سوف تظل تنزل من دَرَكٍ لآخر، ومن سَيِّئٍ لآخر، فإلى كتابِ الله من جديد، وإلى فهمِ المنهجِ لِدَوْرِ رسولِ الله ﷺ وسنته.

طه جابر العلواني